به وانتصارنا له .

لقد ارسل من سوابق القريض ما يعز نواله ، ولا يسهل ترسم اثاره . وماله لايتبوأ هذا المقام بين فحول الشعراء ؟ وهذا ديوانه نقرؤه فلاينتهي تقديرنا ولا يتضاءل اكبارنا واعجابنا . هوشاعر ينبئك مرسل شعره بان نظره كان يلج اعمق الاشياء فيصوغها ابرع صياغة ، ويصورها اروع تصوير .ما من شك في هذا ، ولا كان في وقت من الاوقات مثار حوار بين ذوى البصر والدراية بمنازع الكلام الذين قوموا الكلام بما يحمل من قيمة ادبية وفنية .

فابو تمام شاعر من قبل ومن بعد ، ذو اسلوب لاينبئك عن شعره الا ذوقك له . وانك ساعتها لتقول ، انه هو ، انه ابو تمام الشاعر العبقري .

وبعد : فقد اسهبت ولكن الاسهاب لم يوف ابا تمام حقه ، وان في النفس لكثيرا من الحديث لايتسع الوقت لبثه . فالحديث عن ابي تمام يستنفد الضخام من الاسفار ولكن ان فات الكثير فعلينا ان نورد مايقتضيه المقام ، لعل هذا القليل يكون فيه انصاف لشاعر عبقري سار ذكره في الافاق ، واثار شعره اهتمام الادباء والنقاد وملأ مجامع الادب ومحافله ، ولحث نشئنا المتأدبين ان يغترفوا من نميره العذب علا ونهلاليحسنوا الخلافة في ارثهم عن السلف واحر بهم ان يجدوا من هذه الكنوز ما يجملون به منطقهم ويكسون به سوانحهم ، كي يعطوا تراثهم مايقتضيه من حق عليهم . انهم كادوا يضيعون هذا الحق بعد ان نعب الغربان بالاعراض عن التراث العربي ، والاستعارة عنه بهذه القمامات التي هي السموم بين حنايا بعض الكتب والمجلات الماجنة كي يموت ذوق النشيء، وتنقطع صلته بماضيه الذي كان مازال مفخرة من مفاخر الدهر .

الملامح الإسلامية في شعر أبي تمام

حازم عبد الله خضر

اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم .

صدق الله العظيم

بين يدي البحث :

ما فتىء القرآن الكريم — منذ نزوله على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم— ينفث في أرواح الناس وقلوبهم وعقولهم الحياة والنور ويبدد من حولهم ظلمات الجهالة والضلالة والعمى ، ويفتح امامهم المزيد من العلم النافع في شتى جوانب الحياة وبخاصة الجانب الثقافي من حياة الانسان حيث عنى القرآن الكريم به عناية كبرى شأنه في جميع الاحكام ووجه القلوب والعقول الى طلب العلم وجعله فرضا على كل مسلم ومسلمة حتى كان من ثمرات هذه العناية المصنفات العديدة والمعاجم الكثيرة وكتب الادب التي لا تقع تحت حصر سواء ما الف في الماضي او ما الف ويؤلف في الحاضر او المستقبل هذا فضلا عن التصنيف والتأليف في العلوم والمعارف الاخرى التي كان للقرآن فضل السبق والتوجيه في مضي الانسان قدما للبحث فيها واضافة الجديد الى نظرياتها وقواعدها كلما اشرقت شمس يوم من الايام على بني الانسان . . هذا الكتاب الكريم وجه انظار العرب علماء وادباء الى طلب العلم والبحث

، حتى لم يكن عالم او اديب الا كان اساس ثقافته الاولى القران الكريم يقبل عليه في صباه وشبابه يحفظه ويتدارس آياته مستنبطا منها الاحكام والتشريعات حتى اذا بدا له ان يتجه وجهة علمية اخرى ولا يقتصر على القرآن الكريم وعلومه اتجه لما اراد مستفيدا من ذلك الاساس الرصين الذي قوم لسانه وهذب روحه وخلقه وعلمه ان طلب العلم فرض من الفروض المهمة وان فرقا كبيرا بين العلم والجهل قال تعالى: « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون «١» » وقال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » . بل إن أول آية نزلت على الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم «٢» . لهذا كان على كل باحث متأمل في فنون العربية وعلومها خاصة ان يتوقع ملاحظة اثر القرآن والحديث في هذه الفنون والعلوم ، بل ربما كان هذا الاثر قد شكل في المؤلفات العديدة الاساس المهم والمنطق الرئيس للتأليف والبحث. يبدو ذلك في غرض الكتاب وموضوعاته وطريقة بحثه ، فضلا عن سيرة مؤلفه وثقافته المعتمدة اساسا على القرآن المرتوية من معينه العذب الرقراق الذى لا ينقضي ابداً ولا ينضب .

والادباء في مقدمة اولئك الباحثين والمؤلفين الذين اعتمدوا في ثقافتهم على القرآن وطبقت مؤلفاتهم بطابعه الاسلامي الواضح المتميز ، واذ كان الشعراء ادباء فاننا لابد ان نجد أثر القرآن في ثقافتهم بعامة وفي قصائدهم وما كانوا ينظمون فيه من اغراض بخاصة . يسري ذلك على الشعراء في العصور المختلفة التي تلت نزول القرآن الكريم على الرسول ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ضعفا وقوة وكثرة وقلة . وعلى الرغم من أن الشعراء في بعض عصور التاريخ الاسلامي وبخاصة في العصر العباسي ، قد غلب على

---

(١) سورة الرحمن آية ٦٠

(٢) سورة العلق ١ــ٥

الكثيرين منهم طابع المجون واللهو والعبث لاسباب عديدة في محيطهم وفي أنفسهم .. فان أثر القرآن مع كل ذلك يأبى إلا أن يبرز في قصائد هذا الشاعر او ذاك وبخاصة حين يجنح الشاعر الى الزهد ويمارس معانيه نجد هذا الشعر مطبوعا بالمعاني الاسلامية الواضحة وكأن هذه المعاني كانت محجوبة وراء حجب اللهو والعبث حتى اذا خف صوت اللهو والمجون واقترب الشاعر من المنون بمرض او شيخوخة ظهرت هذه المعاني وكثرت حتى كادت تعادل عند بعض الشعراء ما قاله في صباه وشبابه من الشعر وكانت غير مرة مجالا للدراسة والبحث المتخصص المقصود لأهميتها وكثرتها.«١» واذا كان قسم من هذا الشعر يفتقر الى الحماس والعاطفة اللذين نجدهما في شعر الفترة السابقة من حياة الشاعر فان هذا لا يهم البحث هنا بقدر ما يهمنا وجود هذه المعاني وتوفرها وبالتالي اتخاذها دليلا على ثقافة الشاعر وتأثره بالقرآن والسنة بل بالاسلام جملة.

وابو تمام احد هؤلاء الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة تأثرا بدا واضحا في العديد من القصائد والابيات . . . وقد اشار بعض الباحثين المحدثين الى وجود هذه المعاني في شعر ابي تمام اشارات عابرة لم تتناول استقراء شعره ومتابعة هذه المعاني وتبويبها وارجاعها الى الاصول التي أخذها أبو تمام عنها « ٢ » لذلك رأيت من الواجب علي في ذكرى أبي تمام كشف هذه المعاني ودراستها وارجاعها الى اصولها المستمدة منها مع الاشارة الى توفيق ابي تمام في اخذ المعنى ودرجة هذا التوفيق وذلك بقدر ما تسمح به طبيعة هذا البحث وتستوعبه صفحاته.

ولما كانت المعاني الاسلامية — كما رايت — لا تقتصر عند ابي تمام على معاني الزهد وانما تتناثر في اكثر اغراضه الشعرية رأيت أن اقدم بكلمة موجزة وسريعة لثقافة ابي تمام والطابع العام الذى تميزت به لكي يسهل

(١) زهديات ابي نؤاس — د . علي الزبيدي . على سبيل المثال لا الحصر

(٢) ابرز من تكلم في المعاني الاسلامية في شعر ابي تمام د . عمر فروخ في كتابه : ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم . كان كلامه عاماً مختصرا لا يتجاوز صفحة او بعض صفحة .

بعد ذلك الوقوف على هذه المعاني في شعره وفهمها فهما واضحا مبنيا على نفسية الشاعر وثقافته والبيئة التي عاش فيها.

ثقافة ابي تمام وطابعها الاسلامي :

نشأ ابو تمام في قرية من قرى الشام ، وكان أول عهده بالثقافة الاسلامية حضوره حلقات الدرس في الجامع شأن غيره من أولاد المسلمين حيث كان أول ما يتلقاه الصبي في حلقات الدرس هذه حفظ القرآن الكريم ، واذا كنا « لا نعلم اكان ذلك في كتاب القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعها الاكبر . . . » «١» فان ذلك لا يهمنا بقدر ما تهمنا حقيقة تعلمه القرآن وإقباله عليه في سنى حياته الاولى ونحن نعلم أن هذه الجوامع كانت تضم أمهر الحفاظ والمقرئين وكبار المؤدبين المسلمين بفنون لغوية وادبية وخلقية بالاضافة الى المامهم بعلوم القرآن الاساسية والاولاد يتتلمذون عليهم ويتلقون هذه العلوم تباعاً . . .

وبهذا نكون قد امسكنا بالحلقة الاولى في سلسلة حلقات ثقافة هذا الشاعر الفذ ليسهل علينا بعد ذلك تصور ما يعرض لنا من معانيه الاسلامية في شعره التي كانت وما تزال عنوانا مهما على فهمه للاسلام بجوانبه العديدة ونواحيه الشاملة للحياة الانسانية الكاملة حتى كان في شعره الكثير من التلميحات الى ايات القرآن والحوادث التاريخية والاراء المذهبية و الفلسفية وفي شعره استعمال لكثير من قواعد النحو ... «٢».

كانت ثقافة ابي تمام واسعة المدى متعددة الجوانب اذ لم تقتصر على القرآن الكريم وعلومه بل المرجح انه « انقض على معارف عصره انقضاضا حتى تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق اما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه وخاصة

---

(١) ابو تمام الطائي - البهبيتي ص ٦٢

(٢) الاساس في تاريخ الادب العربي ص ٤٨ وما بعدها .

حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وامجادها في الجاهلية والاسلام.... «١»

وعلى الرغم من قلة الاشارات والاخبار فيما يتعلق بالجانب الاسلامي من ثقافة ابي تمام فان الدراسة التالية لشعره بشيء من التفصيل والاستقصاء، تبين لنا مبلغ اعتماد ابي تمام على الاسلام بمصدريه الرئيسين — الكتاب والسنة— حيث تتكون الفكرة التامة لدى الباحث عن ثقافة ابي تمام الاسلامية والاساس المتين الذي اعتمدت عليه مما ادى الى تفتح فكر ابي تمام على آفاق واسعة في شتى جوانب الحياة لا يتوقف في مديح او هجاء او في اي غرض من اغراضه الشعرية... صور الحياة بجوانبها المختلفة والنفس الانسانية بمنعطفاتها الكثيرة واحوالها وامزجتها... كأحسن ما يكون التصوير واثبت براعة ومقدرة تفوق بها على العديد من شعراء عصره بل حتى على العديدين ممن سبقوه واصبح عدد غير قليل ممن جاء بعده عالة عليه وتلامذة بين يديه يحفظون شعره ويقبلون عليه بالدرس والنقد او التأسي والاقتداء.

وكان ابو تمام استاذا لعدد غير قليل من هؤلاء والمتفوق عليهم في ممارسة الكثير من الاغراض ظهر ذلك في فترات عديدة من حياة الشاعر وفي ظل اكثر من امير او خليفة ومن هؤلاء الواثق الذي كان «... يقول الشعر ويجزل عليه العطاء للشعراء والذين زخر بلاطه بكثير منهم. ومن هؤلاء ابو تمام الذي مهد طريق الحكم والامثال لابي الطيب المتنبي وابي العلاء المعري... » «٢» لهذا كله اثار ابو تمام بثقافته وشعره الدراسات العديدة والمؤلفات الكثيرة قديما وحديثا.

اتهامه بالكفر :

ولعل مما يكمل هذه الصورة حول ثقافة ابي تمام وطابعها الاسلامي ان ننظر نظرة سريعة في نسبة تهمة الكفر لابي تمام .

---

(١) تاريخ الادب العربي - العصر العباسي الاول، شوقي ضيف ص ٢٧٦ ؛ وابو تمام الطائي ، البهبيتي ص ٦٢

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ، حسن ابراهيم حسن ص ٨٤ ج ٢

ونكاد نجد ان الصولي قد انفرد «١» بايراد خبر هذه التهمة وما يدور حولها من اخبار فيقول: «وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره وتقبيح حسنه. وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ولا ايمانا يزيد فيه. وكيف يحقق هذا على مثله حتى يسمع الناس لعنة له...» «٢». والذي يفهم من هذا النص عدم ثبوت التهمة سواء من النظر في نص الخبر او من مناقشة الصولي له....

على ان الصولي وغيره يوردون اشارات اخرى تفيد عدم تقيد ابي تمام بالعبادات الاسلامية وخاصة الصلاة فقد كان - على ما يبدو - متهاونا بها لا يؤديها في اوقاتها يقول المسعودي في ذلك «وكان ابو تمام خليعا ماجنا في بعض احواله وربما اداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجنا لا اعتقادا». «٣» ونستطيع ان نضيف الى هذا رأي أبي العلاء في تهاون أبي تمام في صلاته او تركه لها احيانا يقول: «قال الحسن بن رجاء الكاتب: جاءني ابو تمام الى خراسان فبلغني انه لا يصلي فوكلنا به من لازمه اياما فلم يره يصلي يوما واحدا فعاتبه فقال: يا مولاي قطعت الى حضرتك من بغداد فاحتملت المشقة وبعد الشقة ولم اره يثقل علي فلو كانت الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها. فاردت قتله فخشيت ان يحمل على غير هذا ..» «٤».

ويعلق ابو العلاء على هذا الخبر بعد كلام طويل قائلا «واما ابو تمام فما امسك من الدين بزمام والحكاية عن ابن رجاء مشهورة والمهجة بعيبها مبهورة....» «٥».

وهكذا يتبين لنا رأي القدماء فيما وجه لابي تمام اضافة الى ما تحمله النصوص

---

(١) انظر النقد المنهجي عند العرب ص ٧٦

(٢) اخبار ابي تمام - الصولي ص ١٧٣

(٣) مروج الذهب ص ٣٤٨٠

(٤) رسالة الغفران ص ٤١

(٥) رسالة الغفران ص ٤٨٣

الواردة في ثناياها من عناصر الضعف والاضطراب والمناقضة لحال ابي تمام كما تبدو من شعره الزاخر بالايمان والمعاني الاسلامية الواضحة العديدة. واذا كان الباحث لا يستطيع ان يقرر او يجزم بكفر ابي تمام او زيغ عقيدته او انحراف تدينه فان الذي يمكن ترجيحه ان ابا تمام شأن غيره من الشعراء في عصره كان لاهيا عابثا يغلب عليه طابع التهاون في العبادات والتكاسل عن تأديتها فكان كما قال بعض الباحثين« مستهترا قليل المبالاة بما يتطلبه حسن الاعتقاد». «١»

وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة في حياة الشعراء العباسيين على الرغم من المعاني الاسلامية التي توجد في اشعارهم بدرجات متفاوتة قوة وضعفا... على ان اخرين من الباحثين ينظرون الى ابي تمام— من خلال شعره الاسلامي— نظرة ملؤها التفاؤل وحسن الظن فيصفه بالتقوى والورع والمحافظة على الفروض الى حد الافراط والمبالغة حتى ليبدو الرجل التقي العفيف المتصف بالخلق والرزانة وكان «اشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وابعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكون احيانا مفرطا فيما يظنه التقوى» «٢».

وهذا القول ينطوي على شيء غير قليل من المبالغة بما يخالف حال ابي تمام وسيرته وبما يمكن ان يوجه اليه من حرص صاحب هذا الرأي على تحقيق نظريته التي طرحها في اوائل بحثه في ثقافة ابي تمام واسلامه حين قال بعد ايراده فكرة اسلام ابي تمام وانتقاله من النصرانية: «والصابئون من عقيدة الى عقيدة والنازعون عن مبدأ الى مبدأ والمنقلبون من سياسة الى سياسة تعظم عصبيتهم للحال الجديدة التي صاروا اليها وتزيد نفرتهم من الحال التي كانوا عليها.. » «٣».

---

(١) امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ١٩٢

(٢) ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم ص ٧٣

(٣) نفس المصدر ص ٧٣

وهذه النظرة يمكن ان تقابل النظرة الاولى وبذلك تكون النظرة الوسط التي لا ترتفع بأبي تمام الى درجات الاولياء والصالحين ولا تنزل به الى درجات الكفار والمارقين بل هو مسلم متهاون بفرائض الاسلام مع اعتراف بها واقرار بوجوبها دون جحود وانكار اما ما اورده الدكتور فروخ بصدد اسلام ابي تمام وسماه اخرون انتحالا للاسلام «١» فاننا لا نجد صدى يذكر لهذا الخبر فضلا عن ان الكثيرين ممن درسوا ابا تمام وترجموا له نفوا هذه التهمة او لم يلتفتوا اليها اذ لا قيمة لها وان هي الا افتراء اثاره خصوم ابي تمام للحط من قدره والانتقاص من مكانته» «٢» .

المعاني الاسلامية في شعر ابي تمام :

ولنلتفت الى شعر ابي تمام فعنده الخبر اليقين عن ثقافته وعقيدته وسلوكه والحقيقة ان من يستقريء شعر ابي تمام يجده زاخرا بالمعاني الاسلامية بما يفوق الحصر ويعيي الباحث امر تتبعه بدقة واستقصاء بما يجعل البحث طويلا واسعا. لكل ذلك كان جهدي منصبا على المهم الواضح من هذه المعاني ثم نظرت فيها فاذا هي متعددة المصادر والموضوعات مما جعلني اضيفها استنادا الى ذلك. وبهذا كانت المعاني مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الاسلامي والاسلام بصورة عامة. وهكذا كان البحث يتناول بشيء من التفصيل هذه المعاني بحسب الموضوعات التي عالجها ابو تمام في شعره .

---

(١) تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري ص ٤٨٦

(٢) انظر : ابو تمام الطائي ، خضر الطائي ص ٣٧ ، وانظر كذلك : ابو تمام الطائي ، البهبيتي ص ٦٢

المعاني والالفاظ المقتبسه من القرآن الكريم :

توج ابو تمام شعره بتاج القرآن الكريم ونثر فيه ازاهيره العطرة فجاء فواحا بالنشر الذكي والنفس القرآني النابض الحي .... والمعاني القرآنية المقتبسة من القرآن الكريم في شعره كثيرة تفوق الحصر .. وكذا كان النهج في ايراد هذه المثل المقتبسة يعتمد الظاهر المشهور ويتجاوز الاشارة البسيطة والمكررة.

ومن هذه النماذج قوله ضمن قصيدته البائية في مدح الحسن بن سهل:

كواعب زارت في ليال قصيرة تخيلن لي من حسنهن كواعبا «١»

فقد اورد لفظة «كواعب» الواردة في القرآن الكريم في اكثر من موضع من ذلك قوله تعالى في سورة النبأ عند تحدث القرآن الكريم عما ينتظر المؤمنين الصادقين في الجنة من الوان النعيم والسعادة قال تعالى: «وكواعب اترابا» «٢». اي حور متشابهات ابكار.

ويكرر ابو تمام هذا المعنى بلفظ اكثر وضوحا وتفصيلا في بائيته التي مدح فيها مالك بن الطوق يقول فيها:

لو ان دهرا رد رجع جوابي اوكف من شأويه طول عتابي
ثنتين كالقمرين حف سناهما بكواعب مثل الدمى اتراب «٣»

وهذا اللفظ من المعنى الذي تضمنه اكثر وضوحا وصراحة في الاقتباس من القرآن الكريم والاعتماد عليه.

ويجمع ابو تمام اكثر معنى في مجموعة واحدة من ابيات في بائيته التي سبق ذكرها وذلك حين اراد التحدث عن ممدوحه وما يتميز به من الخلق الاسلامي العالي فهو مقتد بالرسول في افعاله واقواله ومنها عفوه وتوزيعه للاموال.

---

(١) ديوان ابي تمام ، ص ١٤
(٢) سورة النبأ آية ٣٣
(٣) ديوان ابي تمام ، ص ١٦ - ١٧

فيقول :

أسبل عليهم ستر عفوك مفضلا وانفخ لها من نائل بذناب
لك في رسول الله اعظم اسوة وأجلها في سنة وكتاب
اعطى المؤلفة القلوب رضاهم كملا ورد اخائذ الاحزاب «١»

ويبدو لمن يتأمل هذه الابيات اكثر من اقتباس لفظي ومعنوي.

اما الالفاظ فقد خاطب الممدوح بأن له في رسول الله اعظم اسوة ، وهي الفاظ ، الاسوة ورسول الله ، والمؤلفة قلوبهم ، والاحزاب.

واما المعنى فقد وصف ابو تمام ممدوحه بأن قدوته الرسول «ص» وذلك تطبيق لمقتضى الكتاب والسنة. كما ان الممدوح وزع الاموال وهو بهذا مقتد بالرسول «صلى الله عليه وسلم» في توزيع الاموال على مستحقيها وكل هذه المعاني من القرآن الكريم . فالمعنى الاول لك في رسول الله اعظم اسوة » من قوله تعالى « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » «٢»

والمعنى الثاني مأخوذ من قوله تعالى: «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم »«٣»واما لفظ الاحزاب فالاشارة فيه الى نصر الرسول والمسلمين على الاحزاب في معركة الخندق حيث تجمع المشركون وتحزبوا على المسلمين وكان النصر حليف المسلمين والممدوح تأسى في هذا بالرسول ويقتبس ابو تمام من القصص القرآني واخبار الرسل والانبياء العديد من المشاهد والمواقف وها هو يصور لنا نوحا عليه السلام حين يشكر ربه على نعمته التي اولاه اياها بعد ما لاقاه من ضيق وحرج في دعوة قومه الى الله

فيقول :

قل للامير لقد قلدتني نعما فت الثناء بها ما هبت الريح
لم يلبس الله نوحا فضل نعمته الا لمابثه من شكره نوح «٤»

---

(١) ديوان ابي تمام ، ص ١٨
(٢) سورة الاحزاب اية ٢١
(٣) سورة التوبة ٦٠
(٤) ديوان ابي تمام ، ص ٥٥

ويبدو ان ابا تمام يشير الى توسل نوح عليه السلام بربه وشكره له وتركه السؤال عما لا يعنيه فقد سأل ربه عن ابنه فاخبره انه ليس من اتباعه ولا من اهله وزجره ان يعود لمثل ذلك. فرجع نوح مستغفرا منيبا الى الله. فقبل الله تعالى اتابته واسبغ عليه عظيم نعمته واحسانه. قال تعالى: «قال نوح رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين قال رب اني اعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين. قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك «١» واذا صح ان ابا تمام قد اعتمد هذه المعاني في ابياته السابقة فانه يكون قد اكد فيها على المعنى اكثر من تأكيده على اللفظ بل اننا لا نكاد نجد في ابياته لفظة واحدة مما ورد في هذه الابيات.

والملاحظ على ابي تمام في هذه المعاني وفي كثير غيرها انه يبالغ كثيرا حين يقرن ما ورد في القرآن من معان الى بعض الممدوحين فيشبههم بالرسل والانبياء.

ويصور ابو تمام اقوال الوشاة وحدة السنتهم واثر اقوالهم فيمن يستمع اليهم فيقول من قصيدة دالية يمدح فيها احمد بن ابي داود:

ومن يأذن الى الواشين تسلق مسامعه بالسنة حداد «٢»

والشاهد في قوله: بألسنة حداد وهو مقتبس من قوله تعالى في القرآن الكريم: «فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد» «٣».

والذي يفهم هنا من اقتباس ابي تمام لهذه الاية في بيته السابق انه يعدالواشين منافقين ذلك ان هذه الآية مع ما تضمنته من معنى وردت في شأن المنافقين المثبطين

---

(١) سورة هود انظر الايات ٢٤ - ٤٩

(٢) ديوان ابي تمام، ص ٦٣

(٣) سورة . . .

للمؤمنين في الخروج الى الجهاد في سبيل الله. «١» ويمدح ابو تمام ابا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة بكثرة العطاء والبذل الى درجة تصل حد الاسراف والتبذير، ولا يجد صورة اصدق في التعبير عن هذا المعنى من اقتباسه لمعنى القرآن الرفيع في مقت التبذير والاسراف فيقول:

له خلق نهى القرآن عنه وذاك عطاؤه السرف البذار
ولم يك ذاك اصرارا ولكن تمادت في سجيتها البحار «٢»

وهذ مقتبس من قوله تعالى في صفات المؤمنين: «والذين اذ انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» «٣» فجعل الاسراف منافيا لصفة الاعيان الحقيقي. ومنه قوله تعالى ايضاً: «ولا تبذر تبذيرا» «٤» واذا كان ابو تمام قداوحى في بيته الاول ان ممدوحه قد اتصف بصفة نهى الله عنها مما قد يفيد عكس المديح فانه اسرع الى رفع اللبس بذكره ان عطاءه سجية وطبع كالبحار التي لا ينضب ماؤها ولا يقل. وذلك على الرغم مما يثيره التأمل في المعنيين، فان ابا تمام وازن معانيه بالمعنى القراني ليخلص الى القول بأن ممدوحه يعطي عطاءا كبيرا يصل الى حد التبذير في حين حرم الله تعالى التبذير في الانفاق. لكن احتراسه الاخير وضح موازنته ودفع ما يعتريها من غموض.

ومن الامثلة التي دلت على سعة افق ابي تمام في الجوانب الاسلامية وكثرة حفظه لايات القرآن الكريم وقدرته على الاقتباس الناجح المصيب في سرعة ويسر، مع بديهة حاضرة وملاءمة ناجحة، من ذلك الابيات التي اوردها اكثر من ترجمو لابي تمام ودرسوا شعره. ضمن قصيدة سينية مدح فيها احمد بن المعتصم: «حضر ابو تمام عند الكندي فقال له انشدني اقرب ما قلت عهدا، فانشده قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير
(٢) ديوان ابي تمام، ص١٠٦
(٣) سورة الفرقان اية ٦٧
(٤) سورة الاسراء آية ٢٦

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس فقال له الكندي: ضربت الاقل مثلا للاعلى. فأطرق ابو تمام ثم قال على البديهة.

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس «١»

والصورة الاخيرة في هذه الابيات مأخوذة من قوله تعالى: «الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيهامصباح المصباح في زجاجةالزجاجة كانها كوكب دري ..» «٢».

وفي رأيي ان دلالة هذه الابيات لا تكمن في اخذه لهذا المعنى فقط بل في المناسبة بين المعنيين وبالتالي تبريره استشهاده على ما ارتفعت منزلته بما كانت منزلته اقل. وكأنه يقول ان الله تعالى حين اراد ان يقرب نوره الى اذهان الناس ضرب لهم المشكاة التي فيها مصباح.. فليس بغريب على ابي تمام اذا ضرب اقدام عمرو وسماحة حاتم وحلم احنف وذكاء اياس امثلة على اقدام احمد بن المعتصم وسماحته وحلمه وذكائه. حتى ولو كان اولئك اقل منه درجة وادنى منزلة.

وفضلا عن كل ذلك فان دلالة هذه الابيات تبدو على انها دليل فطنة ابي تمام وذكائه حتى كانت هذه الابيات شاهدا يذكره الكثيرون من نقاد الادب ومؤرخيه يذكرون هذه الابيات برهانا على سعة افق ابي تمام وثقافته القرآنية وتأثره بهذا القرآن مع سرعة الجواب ورد كيد الخصوم الى نحورهم في اشد الساعات حرجا وضيقا. «٣»

ونمضي في عرض هذه النماذج من شعر ابي تمام حتى نصل الى مديحه لنوح بن عمرو السكسكي من كندة بقصيدة لامية يقول منها:

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٣٢٦ وانظر العمدة جـ١ ص ١٩٢

(٢) سورة النور آية ٣٥

(٣) انظر تاريخ الادب العربي، احمد حسن الزيات ص ٢٣٤ وانظر: الادب ومذاهب النقد فيه ص ١٢١

اشدد يديك بحبل نوح معصما تلقاه حبلا بالندى موصولا
ذاك الذي ان كان خلك لم تقل يا ليتني لم اتخذه خليلا «١»
فقد اقتبس قوله تعالى على لسان من ضل بضلال غيره واتبعه على غير هدى «يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا «٢» » فاقتبس في الشطر الثاني من البيت الثاني هذه الاية بلفظها ومعناها وبهذا يكون ابو تمام قد نقل المعنى واللفظ واقتبسه بل وافاد منه فائدة كبيرة ذلك ان هذا الخليل ليس ممن يندم الانسان على صحبته واتخاذه خليلا فهو دائم العطاء والمنح موصول حبل المودة والالفة وليس في خلقه ما ينفر منه او يفضي الى الاسى باتخاذه خلا .

وكلما اقبل الباحث على تقصي مثل هذه النماذج في شعر ابي تمام وجده شاعرا عالما حافظا يستشهد بآي القرآن ويقتبس من انوارها اقباسا تضيء في شعره نور الهداية وتكسبه قوة وتأثيرا وحيوية.

ومن هذه النماذج مدح ابي تمام لابي سعيد محمد بن يوسف الثغري في قصيدته اللامية ومطلعها :

ما لي بعادية الايام من قبل لم يثن كيد النوى كيدى ولا حيلى

يقول فيها :

وبين الله هذا من بريته في قوله خلق الانسان من عجل

اقتبس ابو تمام الشطر الثاني من قوله تعالى «خلق الانسان من عجل» «٣».

وقد يكون اقتباس ابي تمام من القرآن الكريم الفاظا مفردة بعيدة بمعانيها عن المعنى الذي اراده ابو تمام بايرادها فيقول في معرض حديثه لابي سعيد وقد قدم من مكة :

في طريق قد كان قبل شراكا ثم لما علاه صار اديما
لم يحدث نفسا بمكة حتى جازت الكهف خيله والرقيما«٤»

(١) ديوان ابي تمام ص ١٨٤
(٢) سورة الفرقان ٢٨
(٣) سورة : الانبياء ٣٧
(٤) ديوان ابي تمام ص ٢٢١

فاللفظتان الكهف والرقيم، مقتبستان من القرآن الكريم وذلك ما يوحيه جمعها في شطر واحد، قال تعالى «ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا» «١».

ومن ذلك قول ابي تمام في رثاء محمد بن قحطبة وابا نصر :

ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل الا وهي من سندس خضر «٢»

فقد اقتبس الفاظ : الكفر ، وسندس خضر.

واللفظتان الاخيرتان من قوله تعالى «ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق» «٣» اما لفظة الكفر فقد ترددت كثيرا في القرآن الكريم بحيث يصعب ايراد المواضع التي وردت فيها وقد تلاحظ في سماع اي قدر يتلى من الايات.

كما ان ابا تمام قد ردد هذه اللفظة او مشتقاتها في مواضع عديدة من شعره وخاصة في قصائده المدحية وحين يتحدث عن قدرة الممدوح وشجاعته وقهره للاعداء، ومن اقتباس ابي تمام من القرآن الكريم وبخاصة في مجال الالفاظ المفردة، قوله في رثاء بني حميد:

لا يبعد الله ملحودا اقام به شخص الحجا وسقاه الواحد الصمد «٤»

فالالفاظ الواحد الصمد، من قوله تعالى: «قل هو الله احد اللهالصمد» «٥».

ولعل قدرة ابي تمام تبدو اوضح ما تبدو في اقتباسه للمعنى الكامل مع بعض الالفاظ التي وردت في الكتاب الكريم، من هذا قوله:

ليس يدري الا اللطيف الخبير أي شيء تطوى عليه الصدور «٦»

وهذا المعنى كما يبدو — مع بعض الالفاظ وبشكل متفرق مأخوذ من قوله

---

(١) سورة الكهف آية ٩
(٢) ديوان ابي تمام ص٣٢٠ .
(٣) سوره الكهف أية ٣١ .
(٤) الديوان ص٣١٨ .
(٥) سورة الاخلاص .
(٦) الديوان ص٣٤١ .

تعالى: «وأسروا قولكم اواجهروا به، إنه عليم بذات الصدور، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير «١» وهناك ايات اخرى في نفس هذا المعنى او بما يقرب منه. ومن التأمل فيما اورده ابو تمام بعد النظر في الآيتين السابقتين يتبين لنا اقتباس ابي تمام للمعنى الكامل المستفاد من الايتين اولا ،وتزيين هذا المعنى ببعض الفاظهما ثانيا.

ومن المعاني القرآنية في شعر ابي تمام قوله في مدح الحسن وسليمان ابني وهب.

لئن رمت امرا ساءني عند بكره لقد سرني فعلا كما في عوانه «٢»

في هذا البيت لفظتان من الفاظ القرآن الكريم وهما: بكر وعوان. وقد ورد ذكرهما في سورة البقرة حين تحدث القرآن الكريم عن بني اسرائيل وكثرة الحافهم في السؤال والمراجعة لنبيهم موسى عليه السلام، قال تعالى:

«... قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك...» «٣»

والمراد البقرة التي ورد ذكرها في القرآن وكان على بني اسرائيل ان يذبحوها ومن صفاتها ان تكون متوسطة في سنها ليست بكرا صغيرة ولا هرمة كبيرة اما المعنى الذي اراده ابو تمام فهو وصف الممدوح بالعطاء والبذل وفعل الخير في شبابه وكهولته لا يتغير من خلقه شيء كما انه لم يبلغ سن الهرم والعجز حتى يضعف عن العطاء او يبدو في خلقه سوء او انحراف.

ويقول ابو تمام في مدح الواثق:

جعل الخلافة فيه رب قوله للشيء كن فيكون «٤»

وهذا مأخوذ من الاية الكريمة: «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون» «٥» ومن هذا اللون ايضا ما ورد في ابيات ابي تمام التي رثى بها ابنا له حيث قال:

---

(١) سورة الملك اية ١٤ .

(٢) الديوان ص٢٤٣ .

(٣) البقرة آية ٦٨ .

(٤) الديوان ص٢٥٠ .

(٥) النمل اية ٤٠ .

كان الذي خفت ان يكونا انا الى الله راجعونا «١»

فالشطر الثاني بأكمله مقتبس من قوله تعالى: «الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون» «٢» .

ولعل في هذا المعنى ما يشير الى شيء من التزام ابي تمام بما يؤمن به من اركان العقيدة الاسلامية فهو يصبر نفسه ويردد قول الله كما اراد الله عز وجل حين وصف المؤمنين وحالهم عندما تصيب احد ذويهم مصيبة الموت. وربما كان هذا ايضا من ادلة فهم ابي تمام للقرآن الكريم وشرح اياته وما تتضمنه من احكام فضلا عن الحفظ.

ويقول ابو تمام:

ما كنت كالسائل الايام مجتهدا عن ليلة القدر في شعبان او رجب «٣»

ويقول ايضا في قصيدة اخرى:

وطمطمت سدا سد يأجوج دونه من الهم لم يفرغ على زبره قطر «٤»

فقد اقتبس الالفاظ: ليلة القدر وسد يأجوج وزبر وقطر. اخذها من ايات عديدة في سور مختلفة. فليلة القدر من السورة المعروفة باسمها وهي قوله: «إنا انزلناه في ليلة القدر..» . وأما سد يأجوج.. وزبر وقطر... فمن قوله تعالى: «ويسألونك عن ذي القرنين .... الى قوله تعالى: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكنني فيه ربي فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال اتوني افرغ عليه قطرا...» «٥».

---

(١) الديوان ص ٣٣٤ .

(٢) البقرة آية ١٥٦ .

(٣) الديوان ص ٣٩٨ .

(٤) الديوان ص ٤٠٠ .

(٥) الكهف اية ٨٨ — ٩٨ .

وقد نجد العديد من المعاني الاسلامية في مجموعة واحدة من الابيات اعتمد فيها ابو تمام على آيات عديدة مي القرآن الكريم . من ذلك قوله في مدح ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري :

من سجايا الطلول ان لا تجيبا ... فصواب من مقلتي ان تصوبا
لو رأى الله ان في الشيب خيراً ... جاورته الابرار في الخلد شيبا
وصليب القناة والرأى والاسـ ... ـلام ســـائل بـذاك الصليبـــا
وعر الدين بالجلاد ولكـــن ... وعور العدو صارت سهوبا
قد رأوه وهو القريب بعيـدا ... ورأه وهو البعيد قريبـا
فدروب الاشراك تدعى فضاء ... وفضاء الاسلام يدعى دروبا«١»

في هذه الابيات معان اسلامية عديدة ، منها قوله في الشيب يذمه ويحاول أن يبرهن على مذمته له بمجاورة الابرار لربهم شباباً قد اعادهم الله من الشيخوخة والهرم الى الصبا والشباب المتفتح البهيج . ولو كان للشيب قيمة — كما يرى ابو تمام — لما أعاد الله تعالى الناس يوم القيامة شبابا لا يهرمون ولا يشيخون . وذلك مأخوذ من قول الله عز وجل :

« فانشأناهن ابكاراً عرباً اترابا لاصحاب اليمين » « ٢ »

أى أرجع الله تعالى النساء الكبيرات في السن الى شابات وصبايا في الجنة. والمعنى الاخر يظهر فيه أبو تمام سطوة الممدوح وقوة شكيمته وجهاده لرفع راية الاسلام لايقف أمامه صعب أو عائق، ويجعل بجده وسعيه الضيق فضاء ويملأ الأرض عدلا وأمنا بعد أن كانت مملوءة ظلماً وفوضى . وهذا المعنى قد اعتمده أبو تمام من قواعد الاسلام العامة — كما يبدو — ثم يأتي بعد ذلك المعنى الثالث الذى أخذه ابو تمام من القرآن الكريم في هذه الابيات وجعله ثمرة ونتيجة لما سبق من كلامه وهو قوله: « قد رأوه وهو القريب . . . مأخوذ من قوله تعالى: « انهم يرونه بعيدا ونراه قريباً » « ٣ »

والملاحظ على المعنى الأخير ان ابا تمام اقتبس اللفظ والمعنى باسلوب معبر

(١) الديوان ص٢٢ وانظر امالي المرتضى ص٦١٠ القسم الأول .
(٢) سورة الواقعة ٣٥-٣٨ .
(٣) سورة المعارج اية٦ .

مؤثر ذلك أن الله عز وجل يتحدث عن الكفار وكيف انهم يرون يوم القيامة بعيدا مع أنه قريب منهم . . . .

وأبو تمام يصور اعداء الممدوح بأنهم كانوا قبل أن يحاربهم يرون أن لاطاقة لأحدبهم وأنهم سيقهرون كل من يتوجه نحوهم فغلبتهم بعيدة ان لم تكن مستحيلة لكنهم حين رأوا قوة الممدوح وصلابته وصبره وجهاده تحققوا من سوء ظنهم وخطأ تقديرهم وغدا قريبا ما ظنوه يوما أبعد من كل بعيد ومستحيلا لا يتصور حدوثه. . .

ويهجو أبو تمام الشاعر يوسف السراج بقصيدة جيمية يقول منها:

للمرء في القرآن اربع نسوة ولتلك أربعة من الازواج «١»

وأبو تمام يعرض بالشاعر ويهجوه عن طريق الطعن بالكثير من صفاته واوضاعه . ولعله في هذا البيت يعرض ببغلة السراج ويصفها بان لها اربعة ازواج وهذا هجاء مقذع يتضح بشرح المعنى المضاد الذى استمده منه اصلا. فهو يشير الى نص القرآن الكريم الذى يبيح للرجل ان يتزوج اربع نسوة . . . قال تعالى : « فانحكوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . . » «٢»

لكن الأمر هنا بالعكس ففي الوقت الذى لا يمكن للمرأة في الاسلام ان تتزوج بأكثر من زوج واحد بل وحتى في الاديان والقوانين الاخرى فانه يجعلها ذات ازواج أربعة . فاذا أمكن توجيه كناية ابي تمام الى زوجة الشاعر فيتضح عندئذ نوع الهجاء واثره العميق في بيت واحد من القصيدة فكيف ببقية الابيات . ومن المعاني التي أخذها أبو تمام من القرآن الكريم قوله :

ليست سواه اقواما فكانوا كما غنى اليتيم بالصعيد

وقد عد الجرجاني هذا البيت من سرقات المتنبي من شعر ابي تمام واورد

---

(١) الديوان ص٢٧٣ .

(٢) سورة النساء آية ٣ .

قول المتنبي :

وزارك بي دون الملوك تحرجي اذا عن بحر لم يجزلي التيمم «١»

ولا يقتصر الجرجاني على ايراد هذا فقط بل يذكر مثلا أخرى تدل على سبق ابي تمام وتقدمه على غيره من المشهورين وبخاصة في المعاني الاسلامية . غير أن كثرة استعمال ابي تمام لهذه المعاني لا تعني نجاحه في اخذها دائما فقد أورد بعض النقاد أمثلة من هذه المعاني التي لم يحالف التوفيق ابا تمام فيها ونورد هنا مثلا واحدا ليكون دلالة على غيره من الامثلة المشابهة: يقول الآمدي: « . . ونحن لورمنا أن نخرج ما في شعر ابي تمام من اللحن لكثر ذلك واتسع ولوجدنا منه ما يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً الا بالطلب والحيلة والتمحل الشديد وذلك مثل قوله:

ثانية في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان إذ هما في الغار

معنى هذا البيت ان بابك صار جارا في الصلب لما زيار وهو ثانية في كبد السماء ولم يكن ثانيا لاثنين اذ هما في الغار أى هو ثاني اثنين في الصلب الذي هو رذيلة وليس ثانيا في الغار لأن هذه «فضيلة» «٢» ولعل قول الامدى وتحليله هذا يؤكد ماأثرناه من ملاحظات وعلامات حول بعض معاني ابي تمام الاسلامية وذلك بالقدر الذي سمح به المقام .

المعاني والالفاظ المقتبسة من السنة :

ولم يقتصر أبو تمام على اقتباسه من القرآن لفظا ومعنى ، وانما أخذ الكثير من الامثلة والقواعد من السنة النبوية الشريفة بالوان واساليب مختلفة تارة باللفظ والمعنى وأخرى بالمعنى فقط . . .

من ذلك قوله في بائيته التي مدح بها اسحق بن ابراهيم المصعبي باسلوب العتـــاب :

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢١٦ .

(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٢٨ — ٢٩ .

قل للأمير الذي قد نال ما طلبا ورد من سالف المعروف ما ذهبا
أدعوك دعوة مظلوم وسيلته إن لم تكن بي رحيما فارحم الادبا«١»

فقد ذكر في صدر البيت الثاني عبارة — دعوة مظلوم — وهي مستمدة من الحديث النبوي الشريف الذي يحذر فيه الرسول « صلى الله عليه وسلم » من دعوة المظلوم لسرعة اجابة الله تعالى له وعدم رد دعوته هذه . يقول الرسول « واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب ».«٢»

ويشير أبو تمام — والقياس مع الفارق — الى ان دعوته لا ينبغي للمدعو ان يردها كما أن المظلوم لا يرد الله دعوته . . . والتشبيه ينطوي على المبالغة والتهويل شان الكثير من امثال أبي تمام وتشبيهاته .

ومن المعاني التي استمدها أبو تمام من السنة النبوية المطهرة قوله ضمن قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك :

لو عاين الدجال بعض فعاله لانهل دمع الاعور الدجال
أعطى أمير المؤمنين سيوفه فيه الرضى وحكومة المقتال
مستيقنا ان سوف يمحو قتله ما كان من سهو ومن إغفال
مثل الصلاة اذا أقيمت اصلحت ما بعدها من سائر الاعمال «٣»

وأبرز معاني هذه الابيات مأخوذ من السنة النبوية وأول هذه المعاني ما أورده في افعال بابك وأنها شر من افعال الاعور الدجال . والاعور ورد ذكره في السنة النبوية وتحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « . . الدجال أعور العين اليسرى صقال الشعر معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار . . » «٤» رواه الشيخان وابو داود ويكفي بهذا المثال رداءة وسوءا ان يشبه بابك به. . .

واما المعنى الاخر فهو من معاني المديح ذلك أن ابا تمام هدم وبنى في وقت واحد فهو حين هجا بابك مدح بالمقابل المعتصم بالشجاعة وقوة البأس وعظيم الفعل حتى كان قتله لبابك مكرمة من المكارم وحسنة محت ما سبقها من سيئات

(١) الديوان ص١٩ .
(٢) انظر : جمع الفوائد ج٢ ص ٦١٧
(٣) الديوان ص١٩٦ .
(٤) انظر جمع الفوائد ج٢ ص٧٤٠ .

وأكملت ما كان من خلل او نقص وذلك مثل الصلا ة حين عدها الرسول مكملة لعمل المؤمن ودليلا على صلاح اعماله ان كانت صالحة والعكس صحيح . قال الرسول :

« أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة ، فان صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله . . . » . «١» والاعتماد لدى ابي تمام على هذا الحديث واضح بالمعنى التام وبشيءغير قليل من اللفظ .

ومن هذه المعاني المستمدة من السنة قول أبي تمام في رثاء ادريس بن بدر السامي بقصيدة يقول فيها :

ولم أنس سعي الجود خلف سريره باكسف بال يستقل ويطلع

وتكبيره خمساً عليه معالنـاً وإن كان تكبير المصلين اربع «٢»

والذي يفهم من هذه الابيات أن ابا تمام أراد أن يضفي على الممدوح صفة القداسة والاحترام والمكانة الرفيعة فقد تبعه عندموته كل شيء حتى الجود وقف خلف سريره كاسف البال منكس الرأس . حزينا اشد ما يكون الحزن حتى إنه كبر عليه خمساً مع أن التكبير على الجنازة أربع وذلك لشدة التأثر والحزن . فقد ورد في السنة المطهرة أن صلاة الجنازة أربع تكبيرات على اغلب الروايات وأصحها ومن هذه الاحاديث ما رواه الستة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي اليه النجاشي في اليوم الذى مات فيه وخرج بهم الى المصلى فصلى بأصحابه وكبر اربع تكبيرات « ٣ »

ويأخذ أبو تمام العديد من المعاني من السنة النبوية في الحكم والوفاء او القدر من الاخلاء ، وحول الدهر وشدائده ، ثم ينتقل الى الحياء وكيف أنه زينة الانسان وقوام حياته اذا فقده فقد كل ما يعتد به وأصبح مستعدا لان يفعل كل شيء . . .

---

(١) الترغيب والترهيب، المنذري جا ص ٢٤٥-٢٤٦ مع مجموعة احاديث في هذا المعنى .

(٢) الديوان ص٣٢١ ،العمدة ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) جمع الفوائد جا ص ٣٥٤ .

إذا لم تخش عاقبة الليالـــــي ولم تستحي فاصنع ما تشاء «١»

والشطر بمعناه واغلب الفاظه — باستثناء لم — مأخوذ من الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد فيه الرسول على الحياء وقيمته ووجوب الالتزام به لانه شعار المتقين وشارة الصالحين فيقول : « إن مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت . . » . «٢» للبخاري وابي داود على أن هناك شواهد أخرى اهتدى فيها أبو تمام بالسنة النبوية وأخذ عنها باللفظ والمعنى وما ذكرناه من المثل يكفي لاعطاء فكرة واضحة عن فهم ابي تمام للسنة وحفظ الكثير من الاحاديث الشريفة الصحيحة وفي مختلف الموضوعات .

وقد لا ينفع ذكر جميع الامثلة بقدر ما تنفع الصورة الواضحة التي تكونها أمثلة بارزة وثيقة الصلة بالسنة لفظا ومعنى . . .

المعاني الفقهية :

وابو تمام لا يثبت في شعره انه من حفظة القرآن أو ممن يحفظون أكثره مع عدد جم من الاحاديث النبوية الصحيحة فحسب ، بل يشير الينا شعره في مواضع عديدة الى أنه كان على قدر لا يستهان به من الفقه بأحكام الشريعة ومراميها ، يبدو ذلك من المعاني الفقهية الكثيرة المتناثرة في شعره على كثرة الاغراض التي عالجها هذا الشعر . . .

ومن هذه المعاني ما أورده ضمن قصيدته التي يمدح فيها أبا الحسن محمد ابن عبد الملك بن صالح الهاشمي ومطلعها :

إن بكاء في الربع من اربـــه فشايعا مغرما على طربـــه

الى أن يقول :

مهذب فدت النبوة والاسـ ـلام قد الشرك من نسبه «٣»

تلك بنات المخاض راتعـــة والعود في كوره وفي قتبه

---

(١) الديوان ٢٦٤ .

(٢) جمع الفوائد جـ٢ ٣٦٤ والتجريد الصريح .

(١) الديوان ٢٤٢-٤٣ .

والشاهد من السنة في هذين البيتين قوله : بنات المخاض . . .
وبنات المخاض واحدتها ابنة مخاض « صغيرة الابل التي لقحت أمها وقد مضى على ولادتها عشرة أشهر . . » «١»
وتستخرج زكاة على ما بلغ خمساً وعشرين من الابل «٢»
أما الفاظ الاسلام والشرك فقد اشرنا فيما سبق الى كثرتها في شعر ابي تمام كثرة تفوق الحصر حتى لتكاد تبدو من مصطلحاته المعروفة في المديح خاصة.
والمعنى الذى يريده من اعتماد للمعنى الفقهي والمعاني السابقة عليه ان الممدوح قوى بجسمه وخلقه غني بماله واملاكه . . .
ومن المعاني الفقهية التي تطالعنا في شعر ابي تمام كلامه عن الحج وأحكامه بما يقرب من التفضيل والشرح حتى لكانه مع الممدوح في حجه خطوة بخطوة يسجل له كل ما يفعله ويؤديه من المناسك وفي مقدمتها الاحرام والذبح والرمي والسعي وتقبيل الركن . . . الى غير ذلك . . .
وقد جاء هذا في قصيدته التي مدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى وذكر حجه في مطلع القصيدة :

مالي بعادية الأيام من قبل ... لم يثن كيد التوى كيدي ولاحيلي«٣»

حتى يقول منها :

حطت الى عمدة الاسلام أرحله ... والشمس قد نفضت ورسا على الأصل
ملبيا طالما لبى مناديـــه ... الى الوغى غير رعديد ولاوكل
ومحرماً أحرقت أرض العراق له ... من الندى واكتست ثوبا من البخل
وسافكا لدماء البدن قد سفكت ... به دماء ذوى الالحاد والنحل
ورامیا حجرات الحج في سنة ... رمى بها حجرات اليوم ذى الشعل
يردى ويرقل بين المروتين كما ... يردى ويرقل نحو الفارس البطل
تقبل الركن ركن البيت نافلة ... وظهر كفك معمور من القبل

(١) المعجم الوسيط جـ١ ص ٨٦٤ .
(٢) انظر بداية المجتهد جـ١ ص ٢٥٠، باب الزكاة.
(٣) الديوان ص ١٨٨ .

لما تركت بيوت الروم خاوية بالغزو اثرت بيت الله بالقفل
فالحج والغزو مقرونان في قرن فاذهب فأنت ذعاف الخيل والابل «١»

وهكذا يعرض لنا أبو تمام صفحة من صفحات فقهه للعبادات الاسلامية ومنها الحج «٢» باسلوب مؤثر أخاذ ومعبر تعبيرا صادقا عن براعة هذا الشاعر في مزج المديح بالمعاني الفقهية مزجا قد يصعب معه الفصل بينهما فكان كل شطر يحوى منسكاً من مناسك الحج يقابله في الشطر الثاني شارة من شارات الشجاعة والبأس وقهر الاعداء على اختلاف عقائدهم واخلاقهم من ذوى الحاد ونحل متعددة الى فرسان أبطال ورجال اشداء . . .

وبهذا جمع بين الحج والغزو حيث كانت صفة بعض خلفاء العباسيين كما يحدثنا التاريخ بذلك .

ونرى هذا المعنى أيضاً — وصف مناسك الحج — في مدح ابي تمام لعبد العزيز وذكر حجه ايضا فيقول :

وقائلة حج عبد العزيـــز فقلت لها حج غيث الانام
لقد حمل الجمل المستقـــل بعبد العزيز سجال الغمـــام
مطاف يطوف ببيت الحرام وركن حوى ركنه باستلام
مضى محرماً بخلال الثرى فأرضى به رب بيت الحرام
وفر الى الله من خلقـــه به عائذا خوف ورد الأثام
أقام طويلا يزيد المقـــام فأمر ضنا منه طول المقام
وآب معرى من السيئآت يرفل في الحسنات الجسام
مناسكه مقبولـــــة وحجته برة بالتمـــام
وأبقى مآثر محمودة معمرة عمر ركني شمام
فدونك تهنئة حـــرة نظام امرىء حاذق بالنظام «٣»

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .
(٢) انظر بداية المجتهد في اركان الحجج واحكامه ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٦٣ .
(٣) الديوان ص ٢٤١ .

وفي هذه الابيات يورد أبو تمام أكثر من معنى من معاني الحج : انه يذكر الاحرام واالطواف واستلام الركن...ثم يتبع هذا التفصيل امورا تتعلق بتأدية هذه الفريضة وما يترتب على تأديتها بالشكل الشرعي المطلوب واهم ذلك حجه المبرور الذى ليس له جزاء الا الجنة كما ورد في الحديث الشريف. فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول «ص» قال : العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور — اي الصادق الصحيح — ليس له جزاء الإ الجنة. « ١ »

كما يشير ايضاً الى الهبة التي يهبها الله تعالى لعباده الذين يحجون حجاً مبرورا وهي : تعريتهم من الذنوب ولهذا قال:

وآب معرى من السيئات يرفل بالحسنات الجسام

وهذا مستمد من قوله صلى الله عليه وسلم : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ». «٢»

وهذان الأمران من فقه الحج وشاراته الخطيرة ، ذلك أن الحج الصحيح يجب أن يخلو من الرفث والفسوق ويقوم على التجرد لله تعالى والخروج من الدنيا بعد رد الحقوق والمظالم — ان وجدت — الى أهلها ، فان فعل المسلم ذلك وأقبل على الله تعالى وأدى مناسكه كاملة غير منقوصة كان على الله أن يغفر عنه سيئاته ويرجع الى أهله مغفور الذنب طاهر الثوب والقلب . . . وهذه معان لاتتيسر لمن يمر على فروض الاسلام واركانه بسرعة وسطحية بل تعتمد على الفهم والتثبت وتحرى الصحيح والابتعاد عن الخطأ . . . ومثل هذا في معاني الحج والفاظه ما جاء في رائيته حيث يقول:

إما حججت فمقبول ومبرور موفر الحظ منك الذنب مغفور

قضيت من حجة الاسلام واجبها ثم انصرفت ومنك السعي مشكور«٣»

ويلاحظ من يقرأ هذه الابيات تأكيد أبي تمام على نفس المعاني التي رأينا

---

(١) جمع الفوائد جـ ١ ص ٤٣٨ .

(٢) نفس المصدر جـ١ ص٤٣٨ .

(٣) الديوان ص ٣٤٣ .

الابيات السابقة في القصيدتين تؤكدها. مما يدفعنا الى عدم الاسترسال في التعليق على هذه الابيات وتجاوزها حيث كان في الصور السابقة ما يكفي ويغني .

ويورد أبو تمام ألفاظاً فقهية في بعض ابياته تدل على معرفته بالحدود والعقوبات فضلا عن معرفته بالمناسك والعبادات ، يقول في ابيات ضمن مديحه لابي الحسن محمد بن الهيثم بن شبابة :

اعطيتني دية القتيل وليس لي عقل ولا حق عليك قديم
ألا تدى كالدين حل قضاؤه إن الكريم لمعتفيه غريـــم «١»

والالفاظ الواردة في هذين البيتين ، دية القتيل وهي ما يدفع من المال عقابا على من قتل انسانا خطأ . او عمدا في أحوال وظروف خاصة « ٢ » .

والعقل : من العاقله : وهي العصبة بالنسبة للقتيل من جهة الاب والذين يشتركون في دفع ديته «٣» ومن المعاني الفقهيه قول ابي تمام في قصيدته التي مدح بها الحسن بن وهب ومطلعها :

الا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من احدى بلي

حتى يقول :

أرى الاخوان ما غيبت عنهم بمسقط ذلك الشعب القصي
ومردوداً صفاؤهم عليهـــم كما رد النكاح بلاولي «٤»

ونلاحظ أبا تمام يدعم معنى البيت الأول بمعنى البيت الثاني حين يذكر ان صفاء هؤلاء مردود عليهم غير مقبول منهم كما رد بعض الفقهاء نكاح الفتاة من غير موافقة وليها ، حيث اشترط الامام مالك والشافعي موافقة الولي الى جانب موافقة الفتاة نفسها ، قال القرطبي في بداية المجتهد : «اختلف

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٨ .
(٢) التشريع الجنائي الاسلامي ج٢ ص ١٧٦ ومابعدها .
(٣) المعجم الوسيط ج ٢ ، ص ٦٢٣ .
(٤) الديوان ، ص ٢٦١ .

العلماء : هل الولاية شرط من شروط صحة النكاح أم ليست بشرط؟ فذهب مالك الى أنه لا يكون نكاح الا بولي وأنها شرط في الصحة في رواية اشهب عنه وبه قال الشافعي . . » . «١»

ومن المعاني الفقهيه : هذا الاصطلاحان الفقهيان في أحد ابيات قصيدة ابي تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

لهان علينا أن نقول وتفعـــلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

حتى يخاطبه بقوله:

فوالله ما آتيك الإ فريضـــة وآتي جميع الناس الا تنفلا «٢»

واللفظتان : فريضة وتنفل من الفاظ الفقه الاسلامي.

أما الفريضة فمعناها : ما يجب على المسلم فعله على وجه الالزام ويمدح فاعله ويثاب كما يذم تاركه ويحاسب .

التنفل : ما ندب الشرع الحكيم الى فعله من غير الزام ، يثاب العبد على فعله ولا يحاسب على تركه ويسمى المندوب والمستحب والتطوع والاحسان والفضيلة . . . » . «٣»

ويكون معنى البيت على هذا الاساس: انني آتيك لاني اعد المجيء اليك فرضا واجبا علي في حين اعد قصد الناس سنة وتنفلا.

والفرق واضح بين المعنيين. كما يتضح ايضا استعانة ابي تمام بالمعاني الاسلامية فقهية وغير فقهية لمعاني مديحه من غير اهتمام بما قد يترتب على ذلك من المبالغة والافراط في صفات الممدوح او التجاوز احيانا على المعاني الاسلامية المنقولة. ذلك ان الواجب المفروض ما يوجبه ويفرضه الله عز وجل ورسوله والسنة ما يتقرب به العبد الى الله والرسول ليزكو عمله وتزال بعض

---

(١) بداية المجتهد جـ٢ ص ٨ .

(٢) الديوان ، ص ١٩٠ .

(٣) الوجيز في اصول الفقه ، ص ٢٤—٣٠ .

الاخطاء والمآثم من صحيفة اعماله او تقابلها اعمال حسنة تطغى عليها وتزداد

المعاني الاسلامية العامة :

وفي هذا الباب نرى ابا تمام يعرض في شعره مثلا اسلامية عامة مأخوذة من عموم قواعد الاسلام واصوله الرئيسة والفاظه المشتهرة... يكثر هذا في شعر المديح خاصة.

من ذلك مدح حبيش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس العين :

الى خير من ساس البرية عدله ... ووطد اعلام الهدى فاستقرت
حبيش حبيش بن المعافى الذي به ... امرت حبال الدين حتى استمرت
ولولا ابو الليث الهمام لأخلقت ... من الدين اسباب الهدى وارثت
اقر عمود الدين في مستقره ... فقد نهلت منه الليالي وعلت «١»

ويعرض لمثل هذه المعاني في مدحه لابي سعيد محمد بن يوسف الطائي :

تالله ادري الاسلام يشكرها ... في وقعة ام بنو العباس ام ادد
يوم به اخذ الاسلام زينته ... بأسرها واكتسى فخرا به الابد
يوم يجيء اذا قام الحساب ولم ... يذمه بدر ولم يفضح به أحد «٢»

وبهذ نرى المعاني الاسلامية عامة لا تعنى بالتفاصيل الاقليلا فالاسلام هو المعنى بهذا الاقتباس الاسلام الذي يعني الدين الاسلامي والمسلمين، واذا كان ابو تمام قد تطرق الى شيء من التفصيل عند ذكره ليوم الحساب وبدر واحد فان طابع هذه الالفاظ عام ايضا او اقرب الى التاريخ الاسلامي منه الى المعاني الاسلامية البحتة وتطالعنا ابيات اخرى لابي تمام بمعان اسلامية عامة باسلوب اخر يختلف عما وجدناه في المثالين السابقين، فالممدوح هنا لا يفعل الا ما يرضي الله وهو ولي الامة وخادمها والراعي لمصالحها، يحافظ على سمعة الرسول ومكانته بمحافظته على امته ورعايته لها ولنستمع اليه وهو ينشد:

---

(١) الديوان ، ص ٤٨ .
(٢) الديوان ، ص ٧٥ .

الله يشهد ان هديك للرضا فينا ويلعن كل من لم يشهد
اولى امة احمد ما احمد بمضيع ما اوليت امة احمد «١»

ويمدح ابو تمام ابا سعيد بقصيدة تزيد على اربعين بيتا يتعرض في العديد من ابياتها للمعاني الاسلامية العامة يوجهها نحو ممدوحه موضحاً بأسه وشكيمته وقدرته على الحرب وحمايته للثغور وجهاده المتواصل فما اشبهه بالصحابة المجاهدين الابرار ابي عبيدة وخالد وسعد والمثنى وغيرهم...

يا فارس الاسلام انت حميته وكفيته كلب العدو المعتدي
ونصرته بكتائب صيرتها نصبا لعورات العدو بمرصد
اصبحت مفتاح الثغور وقفلها وسداد ثلمتها التي لم تسدد
ادركت فيه دم الشهيد وثاره وفلجت فيه بشكر كل موحد
ضحكت له اجبال مكة ضحكها في يوم بدر والعتاد الشهد
احييت للاسلام نجدة خالد وفسحت فيه لمتهم ولمنجد «٢»

ويمضي ابو تمام في الابيات التالية يسرد اسماء اخرى لبعض الصحابة المشهورين بالجهاد والتضحية والبذل، مع ربط كل هذه المعاني بممدوحه وتوجيهها نحوه..... وفي ابيات اخرى يورد ابو تمام ما يشبه هذه المعاني في قصيدة يمدح فيها ابا سعيد حيث يقول فيها:

هو كوكب الاسلام اية ظلمة يخرق فتح الكفر فيها رار «٣»

وتجد نفس المعنى تقريبا في قوله:—

أمسى بك الاسلام بدرا بعدما محقت بشاشته محاق هلال «٤»

ويحشر ابو تمام المعاني الاسلامية في مجموعة ابيات او في بيت واحد، فنجد فيه المعنى الاسلامي العام وبعض المعاني الفرعية من القرآن او السنة او الفقه...

---

(١) الديوان، ص ٨٥.
(٢) الديوان، ص ١٠٤.
(٣) الديوان، ص ١١٠.
(٤) الديوان، ص ٢٠٠.

وقد يكون فيها بعض امور العقيدة من جنة ونار او بعض المعاني المتعلقة بالدعوة الاسلامية في فترة من فتراتها.....

يقول ابو تمام في تهنئة الواثق وتعزيته بالمعتصم ابيه :

هدمت صروف الدهر أطول حائط ضربت دعائمه على الاسلام

ويقول أيضاً :

لغدوا وذاك الحول حول عبادة فيهم وذاك الشهر شهر صيام

ويقول أيضاً :

هي بيعة الرضوان يشرع وسطها باب السلامة فادخلوا بسلام «١»

واذا كانت هذه الابيات متباعدة فإن معانيها مختلفة كذلك وهي تعالج مختلف الامور ففي البيت الاول يتطرق أبو تمام الى صلة الممدوح بالاسلام وكيف أنه هدم كل صروح البغي والشرك التي كانت تهدده ...

وفي البيت الثاني يذكر الصوم وهو عبادة من العبادات الاسلامية وأما بيعة الرضوان فيذكرها في البيت الثالث ويقرنها باليمن والخير والسلام كالذي ترتب على هذه البيعة في عهد الرسول من فتح مكة ودخول الناس في الاسلام افواجاً في السنة التي تلتها .

وهكذا لو استعرضنا ابيات القصيدة كلها ،وابياتها تزيد على الخمسين، لوجدنا المعاني الاسلامية العامة تطالعنا مرات عديدة وفي مجموعات مختلفة من الابيات.

ويمدح أبو تمام المأمون بقصيدة طويلة يتعرض فيها للمعاني والمفاهيم الاسلامية في اماكن عديدة في مثل قوله :

مستسلم لله سائس امـــة بذوي تجهضمها له استسلام
يتجنب الآثام ثم يخافـها فكأنما حسناته آثـــام

وقوله :

ما زال حكم الله يشرق وجهه في الارض مذ نيطت بك الاحكام

---

(١) الديوان ص ٢٠٩ .

وقوله :

لما رأيت الدين يخفق قلبه والكفر فيـه تغطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى أسرجن فكرك والبلاد ظلام

وقوله في نفس القصيدة :

في معرك أما الحمـام فمفطر في هبوتيه والكماة صيام «١»

وجميع هذه المعاني مطروقة من قبل أبي تمام في مثل هذه المواقف. وان كان فيها شيء فهو التصوير البارع للحرب والمعركة التي خافها ممدوحه، واستعماله لفظي الافطار والصيام كناية عن الايقاع بالعدو واصابته بأفدح الخسائر لشدة بأس المقاتلين وشجاعة قائدهم وقدرته الفائقة على التصرف الحسن في الازمات واوقات الشدة والحرج الى جانب خلقه العالي الرفيع اذ يتجنب الآثام ويبالغ في ابتعاده عنها حتى ليكاد يعد اثماً ما ليس بأثم ويبتعد عما ينبغي ان يقترب منه ....

وفي مدح أبي تمام لابي سعيد وقد قدم من مكةبقصيدته الميمية التي مطلعها:

إن عهدا لو تعلمان ذميما أن تناما عن ليلتي او تنيما

ضمنها كثيرا من المعاني الاسلامية العامة سواء منها ما كان متعلقاً بالحج او مشيرا اليه، او ما كان منها عاماً :

وأحق الاقوام أن يقضـى الدين امرؤ كان للاله غريما
في طريق قد كان قبل شراكاً ثم لما علاه صار أديمـا
لم يحدث نفساً بمكة حتى جازت الكهف خيله والرقيما
حرم الدين زاره بعد ان لم يبق للكفر والضلال حريما
حين عفى مقام ابليس سامى بالمطايـا مقام ابراهيمـا «٢»

ونكاد نقرأ نفس هذه المعاني ولكن باسلوب آخر في ابياته التي مدح فيها أبا الحسن محمد بن شبابة، تدور حول قوة الممدوح ونصرته للاسلام وخذلانه

---

(١) الديوان ص ٢١١–٢١٣ .
(٢) الديوان ص ٢٢١ .

للكفر وهزيمته شر هزيمة يقول أبو تمام :

طمطمت بالخيل الجبال من العدى والكفر يقعد بالهدى ويقوم
بالسفح من همدان اذ سفحت دما رويت بحجته الرماح الهيم
يوم وسمت به الزمان ووقعة تركت امام الكفر وهو أميم
وبيان ذلك ان أول من حبا وقرى خليل الله ابراهيم «١»

والمعاني الاسلامية في هذه الابيات عديدة لايكاد بيت واحد منها يخلو من اشارة الى معنى من هذه المعاني، ففي البيت لفظة الكفر وما ترتب على وجودها من تزعزع الكفر نفسه وانهزامه امام الهدى .

وفي البيت الثاني لفظة الهيم وهي الابل العطاش وقد شبه بها الرماح واصل المعنى من قوله تعالى: « فشاربون شرب الهيم » «٢» .

وفي البيت الثالث لفظة الدين ولفظة الكفر والمعنى الذي ربط بينهما هو انهزام الكفر امام الدين الذي اشرق فجره وسعدت أيامه ...

وأما البيت الاخير ففيه اسماء: خليل الله وابراهيم. ثم هذا المعنى الذي اخذه من القرآن وهو معنى القري واكرام الضيف الذي كان اول من سنه ابراهيم عليه السلام « فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم ». «٣»

المعاني الاسلامية في بعض مطولات أبي تمام :

وهذه احدى قصائد ابي تمام الطوال التي عرض فيها صورا عديدة من المعاني الاسلامية تصريحا او تلميحاً مما جعل دراسة هذه القصيدة باستخراج ما تحويه من المعاني الاسلامية امراً تقتضيه طبيعة البحث .

والقصيدة قالها أبو تمام في مدح المعتصم في وقعة عمورية متغنياً بما حققه من نصر وظفر على الاعداء ، وأبو تمام يبدا هذه القصيدة بمطلع مؤثر حاسم يقرر القاعدة التي لا يتم النصر الا بها وهي القوة المتمثلة بعدد الحرب والقتال والسواعد المفتولة القوية . . . أما الكتب — ويقصد بها كتب المنجمين—

---

(١) الديوان ص ٢٢٧ .
(٢) سورة الواقعة ٥٥ .
(٣) الذاريات ٢٦ .

فانها قل ان تصدق في ذلك وحتى لو صدقت فهي كاذبة :

السيف أصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ثم يمهد أبو تمام لمعانيه الاسلامية بوصف السيوف بأنها صحائف بيضاء ناصعة مجردة عن كل ما يريب . . . ويخلص من ذلك الى رفض فكرة الرجوع الى المنجمين وأخذ بعض اخبار الغيب عنهم ، فان هؤلاء مهما صدقوا فانهم كاذبون وهذا المعنى اسلامي بحت إذ الاسلام يرفض اللجوء الى المنجمين ويعد ذلك ضعفاً في العقيدة ونقصاً في الايمان . . . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

ليس منا من تطير او تطير له اوتكهن اوتكهن له او سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد « ص » «١»

ويخلص أبو تمام الى المعاني الاسلامية الاتية في هذه الابيات :

لو بينت قط امراً قبل موقعه لم يخف ما حل بالاوثان والصلب

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به نظم من الشعر او نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء لـــه وتبرز الأرض في اثوابها القشب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

وبهذا يجعل أبو تمام الفتح الذى تم للمسلمين على عديد المعتصم فتحا «٢» عظيما تضيق عن وصفه الخطب والقصائد ، كيف لا وقد هدم الشرك واقتلع جذوره وحطم الاصنام والاوثان وما يتبعها من الوان الشرك والطغيان؟ . . . نصر تفتحت له ابواب السماء فباركه الله تعالى ونفع به من في الأرض حيث دفع الاسلام قدما نحو العلا والمجد في حين دحض الشرك وجعله يهوى الى دركات سحيقة لا تقوم له بعدها قائمة. ويمضي أبو تمام في ربط النصر بالاسلام ودحض الشرك ، يكرر هذا باساليب عديدة ويدخل في كل مرة الفاظاً وتعابير جديدة من ذلك ما يقوله في تصوير المشركين :

(١) الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٣ ، باب الترهيب من السحر واتيان الكهان والعرافين . ص٣١—٤٠

(٢) الديوان ص٨

لما رات اختها بالامس قد خرجت كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الذوائب من آتى دم سرب
بسنة السيف والخطي من دمـــه لاسنة الدين والاسلام مختضب «١»

وفي ابيات أخرى يعرض الفكرة بعد أن يطورها ويغير بعض عناصرها فيخرجها شيئاً جديداً كان لم يسبق له ذكره في ابيات سابقة:

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له المنية بين السحر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقـــم لله مرتقب في الله مرتهـــب
ومطعم النصل لم تكهم أسنته يوماً ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد الا تقدمه جيش من الرعب «٢»

ونجد ابا تمام في هذه الابيات يؤكد على المعتصم بعد ايراده المعنى الاسلامي العام في البيت الأول فيصف المعتصم باعتصامه بالله — مشتق من اسمه — والانتقام له والمراقبة لله عز وجل والرهبة منه تعالى وهذه الصفات: الاعتصام بالله والانتقام له ومراقبته والرهبة منه قل ان تجتمع في انسان الا كان من الصالحين الابرار والمجاهدين الاخيار الذين نذروا انفسهم لله . عزوا على على الله وصدقوه العزم فصدقهم النصر وكان من نصره لهم جيش الرعب الذي يوقعه في قلوب اعدائهم وقد كان هذا خاصاً بالرسول وورد ذكره في معرض الحديث عن معركة بدر في قوله تعالى:

« إذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب . . . » «٣» ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « نصرت بالرعب مسيرة شهر » «٤»

ولا يختم أبو تمام قصيدته هذه حتى يكرر هذا المعنى مرة أخرى وباسلوب آخر ليكون اخر ما يبقى في ذهن السامع او القارىء وهي نفس الفكرة التي

---

(١) الديوان ص٩ .
(٢) الديوان ص٩.
(٣) الانفال اية ١٢ .
(٤) جمع الفوائد ج٢ ص ٤٣٩

أكد عليها أبو تمام كثيرا فكرة اعتصام الخليفة بالله واعتماده عليه . . . حتى استحق نصر الله في الدنيا ومثوبته في الاخرة وذلك جزاء المجاهدين المرابطين الذين يخوضون غمرات الموت دون خوف او وجل يبذلون التضحيات الجسام التي تذكر بتضحيات المجاهدين الأول في بدر وأحد وغيرهما . . .

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة او زمام غير منقضب
فبين ايامك اللائي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقيت بني الأصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت اوجه العرب «١»

على أن في القصيدة معاني اسلامية أخرى من قبيل اشارة ابي تمام للخضاب وصلته بالسنة او اشارته الى قصة يوشع التي تذهب الى أن الشمس تأخرت من أجله عن مغربها فكأن هذا يوم يوشع إنه يوم المعجزة الكبرى في تاريخ العرب . . . ونراه بعد ذلك يتحدث عن هذا اليوم الطاهر الجنب وما فيه من الزواج والعزوبة . . . » «٢» وليست المعاني الاسلامية هي كل ما في القصيدة فقد اورد فيها أبو تمام معاني وثقافات اخرى كاليونانية الى جانب الثقافة العربية . حتى عدها بعض الباحثين مثلا حياً يرينا « كيف تطورت قصيدة المديح العصر العباسي فقد اخذت تستوعب الثقافات المختلفة من عربية واسلامية وفارسية ويونانية . . . » «٣»

ونستطيع أن نلمح الكثير من الاشارات والمعاني الاسلامية العامة والخاصة في قصائد ابي تمام ومطولاته الأخرى وقد كان الواجب أن تدرس هذه القصائد بشيء من التفصيل أيضاً لكن طبيعة هذا البحث وظروفه تحتم الايجاز فكان لابد من الاقتصار على نموذج واحد من أشهر نماذج أبي تمام الشعرية

---

(١) الديوان ص ١٠ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص ٢٥٦ — ٢٦٠ .
(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٦١ .

وقصائده المطولة وبامكان المرء تكوين فكرة مختصرة واضحة عن طبيعة شعر أبي تمام في قصائده الطويلة والطابع الذي تميزت به وبذلك تبدو ثقافة أبي تمام الاسلامية وقدرته على الاقتباس والأخذ بما يجعل شعره فذا في بابه ، قوي التأثير واضح المعالم والسمات.

الخاتمة :

ونقف الان وقفة قصيرة بعد هذه الجولة الممتعة في شعر ابي تمام وازاهير معانيه الاسلامية . . . نقف لنستعيد أهم النتائج التي يمكن أن يفضي اليها هذا البحث المتواضع . . . وما يمكن ان يضيفه الى حياة ابي تمام وثقافته وشعره على وجه الخصوص .

ويدرك من يتابع هذه المعاني ما كان ينطوي عليه أبو تمام من العلم الواسع بالقرآن والسنة والفقه الاسلامي . . . ذلك العلم الذي نطقت به ابيات كثيرة وقصائد مطولة من شعره . . . .

العلم الذي يستبعد معه أن يكون صاحبه من الكفار أو زائفي القصيدة منحرفي الفكر والخلق . . . أما الهوة التي قد تبدو بين سلوك أبي تمام وبين ما أورده من الدلائل والاشارات الاسلامية في مواضع الاحترام والتقدير والاعجاب والتعظيم . . . فيمكن أن ينظر اليها من خلال وضع ابي تمام الشاعر وبيئته التي عاش فيها وقد لا ينفرد وحده بظاهرة الفصل بين السلوك والاعتقاد — التي هي ليست من طبيعة الاسلام — وإنما يشاركه فيها أكثر الشعراء وكثير غيرهم من الناس . . . ولئن كانت هذه الظاهرة خطيرة في المجتمع الاسلامي ، متعلقة بمصيره دنيا وأخرى . . . فلعل مما يشفع لابي تمام خاصة عدم استخفافه بشيء من احكام الاسلام بالانكار اوالجحود ولقد وجدنا ابا تمام يو صف بالتقوى والورع الى جانب وصفه بالمجون والاستهتار فاذا نظرنا اليه من خلال معاصريه او سابقيه من الشعراء فلربما وجدناه

أقلهم استهتارا ومجونا مع ما كان يتميز به من الاخلاق الطيبة والصفات الحميدة إضافة الى تلك الاصداء الايمانية في شعره والمعبرة عن فهمه للاسلام وحبه له وتعظيمه لكتابه الكريم وسنة رسوله العظيم . ظهر ذلك بوضوح في ممارسة ابي تمام للمعاني الاسلامية وابرازها لفضل القرآن الكريم وتأثيره على أهل العلم والادب سواء في انفسهم واخلاقهم أو في آثارهم العلمية والادبية .

وفي معاني أبي تمام الاسلامية يتجلى العموم والشمول لآفاق الشريعة الاسلامية ومصادرها في فكرأبي تمام وامتزاج كل ذلك بروحه وخلقه ، وتردده على لسانه في كثير من المناسبات والمواقف.

ومما يفهم من المعاني القرآنية المقتبسة في شعر ابي تمام حفظه للقرآن او حفظ اكثره بدليل اقتباسه من سور عديدة متباعدة وفي موضوعات متباينة وكان — على الارجح — يفهم القرآن أو يفهم أكثر آياته بدليل التوفيق الذي حالفه في كثير من مواضع الاقتباس والقدرة على الجمع بين المعاني حتى كان مقدار التوفيق الذي حالفه في الاقتباس واضحا جلياً لا يرى فيه من مظاهر الضعف الا قليل .

وقد يفيد اقتباس ابي تمام لآي القرآن الكريم باللفظ والمعنى في اعطاء فكرة عن المستوى الثقافي الرفيع الذي كان عليه مجتمع ابي تمام حتى يخاطب بمثل هذه الاساليب فضلا عما يكنه هذا المجتمع للقرآن والسنة واحكام الشريعة الاسلامية حتى انزل ابا تمام هذه المنزلة الرفيعة في الفكر والادب وأوصل شعره الى درجة رفيعة في ادباء عصره وشعرائه.

وتطلعنا هذه الدراسة على حقيقة معرفة أبي تمام للسنة النبوية الشريفة فهماً وحفظا يدل على ذلك ما أورده من المعاني والالفاظ مجتمعة ومنفردة في المواضع المناسبة لها مع الفهم والاحاطة لمدلولاتها.

وهذا بدوره يلفت نظرنا الى أهمية السنة في حياة الناس وكونها مكملة للقرآن الكريم بالشرح والتبيين والتقييد والاطلاق . . . وغير ذلك ، والمتأمل

في معاني السنة التي تضمنها شعر ابي تمام يلحظ العموم والشمول لموضوعات مختلفة حسب ما كان يقتضيه المقام ويجعل ابا تمام قادرا على اخذه ناجحاً في نقله .

ومع ان حفظ السنة وفهمها من الأمور التي تترتب على حفظ القرآن غالباً وان كثيرين من الشعراء كانوا يحفظون قسماً من القرآن والسنة الا أننا نجد ابا تمام قد مارس الاقتباس والاخذ بشكل بارز ملحوظ قد يفوق به كثيرين غيره ممن سبقوه أو عاصروه بل وحتى من الذين جاءوا بعده.

واما المعاني الفقهية فقد كانت هي الأخرى من أدلة ثقافة ابي تمام الاسلامية الواسعة بل ان هذه المعاني —كما ارى— أوضح في الدليل واقوى في الاحتجاج على حفظ القرآن والسنة ، ذلك أن الفقه دليل الفهم الواسع العميق لمصادر الشريعة واستيعاب الاحكام وربما القدرة على الاستنباط واذا كان هذا لا يعني أن ابا تمام كان فقيهاً ، فهو يعني على الاقل أن لابي تمام حظاً لا باس به من الفقه.

وفضلا عن هذا فان المعاني الفقهية التي وردت في شعر شاعرنا عامة قد عالجت مختلف الموضوعات الفقهية من الصلاة والصيام والحج والزكاة الى الوضوء والتيمم . . الى غير ذلك من موضوعات الفقه وابوابه .

على أن مما يكمل هذا أن المعاني الاسلامية العامة كانت من الادلة القوية الاخرى على ثقافة ابي تمام وسعتها وشمولها لجوانب اسلامية متعددة تعالج مختلف جوانب المجتمع الاسلامي ، يؤيد هذا ويقويه النظرة السريعة في جميع هذه المعاني حيث يتبين أن اكثرها ليس من البسيط المتداول او السهل المعروف . ولو كان الأمر كذلك لتغيرت النظرة اليها ولكن الأمر — في رأيي — على غير هذا فقد أفصح أبو تمام في معانيه الاسلامية عن علم واسع ومعرفة شاملة في نواحي العقيدة الاسلامية واحكامها ومصادرها مما يقرب من التخصص إن لم يكن هو التخصص بعينه.

وبهذا يكون لأبي تمام الفضل في ابراز دور القرآن الكريم والسنة النبوية في الادب العربي في كل عصر ومصر وضرورة اعتماده عليه لكي يسمو الى درجة عالية في اغراضه واساليبه والفاظه ومعانيه . . .

ومن هنا أيضا تبرز أهمية هذا البحث . . . إنه يثير مسألة الصلة القوية بين الادب العربي من جهة وبين عناصره الأولى وفي مقدمتها القرآن والسنة.

ويدعو الى دراسة هذا الادب من هذه الزاوية بابراز المعالم الاسلامية الواضحة في النصوص الادبية واخلاق الادباء وتصرفاتهم . . . ومع أن البحث لم يستوعب جميع الأمثلة التي اقتبس فيها أبو تمام من القرآن والسنة وغيرهما لكثرتها ولطبيعة البحث نفسه فان ما ورد من الأمثلة — على اختلاف اغراضها ومصادرها — يكفي — في رأيي — لتكوين صورة حية واضحة المعالم بارزة السمات عن تأثر ابي تمام بالقرآن والسنة خاصة وبالاسلام عامة.

واذا كان البحث محاولة لابراز الدور الكبير للقرآن والسنة في الادب العربي فلا يضيره ما قد يبدو فيه من النقائص والعيوب فالكمال لله وحده ، وفي اخلاص العزم وصدق النية ومن ثم آراء الادباء والنقاد مايعين على تلافي النقص وراب الصدع فلنمض جميعاً في طريق العلم النافع الصحيح الذي ندبنا اليه القرآن الكريم وحظنا على طلبه بندائه العلوي الأول للرسول صلى الله عليه وسلم ثم للانسانية جميعا من بعده « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم»